من أيام الرعب

أمي

بقلم : يوسف الشاروني

ليسانسيه بالفلسفة من جامعة فؤاد الاول

كنت في العاشرة من عمري ، ومع ذلك لا أزال أذكر كل شيء بوضوح ... لم اكن أعي الكثير مما حولي ، ومع ذلك فقد وعيت حوادث تلك الليالي وعيا تاما كأنما هي نقطة وضيئة وسط زحمة من الظلام .

كانت أمي تنحدر من سلالة غنية ، لكنها ولدت من والدين فقيرين ، ولم اكن أعرف في ذلك العمر شيئا كثيراً عن تاريخ حياتها ولا عن زواجها من أبي . غير اني كنت أعلم من الاحاديث التي كانت تدور احيانا بينها وبين صديقات لها انها كانت تنوى الزواج بشاب اقطع حين اعترض على ذلك والداها ، وان الشاب تحول بعد ذلك ليعمل في الحركات السياسية ، فكان أن اتجهت أمي نحو نفس ذلك الاتجاه .

كانت أمي دائمة الحركة تخرج دائما لتخطب في الجماعات وتجلب لنا القوت ، لكنها أبدا ما كانت تصحبني معها ، دائما كانت تتركني وحيدا في الغرفة فما كنت أحب ان اصادق أطفال الزقاق لانهم كانوا خشنين كذابين قذرين وانا ضعيف البنية مرهف الحس لا أحب سوى أمي.

لكن أمي كانت مريضة في هذه الليلة ، لم تكن تشكو شيئا معينا ، بل كانت مستلقية على سريرنا ، وفجأة ترتعش كأنما تحس بردا مع أننا كنا في اوائل مايو ، فتطلب مني أن احكم غطاءها ، ثم لا تلبث ان تتبرم بالغطاء كأنما تكاد أن تختنق ، فتلقيه في عنف بعيداً عنها وهي تتصبب عرقا. وعلى ضوء المصباح البترولي المرتجف كنت أتفرس في وجهها الاصفر الممتقع على أستطيع أن اقرأ شيئا مما يعتمل وراءه بينما العاصفة في الخارج تزأر كأنما اصابها جوع جهنمي فقد كانت رياح الخماسين تهب شديدة في تلك الليالي ، لكنها كانت تهب في تلك الليلة بالذات في قوة حتى لقد اكتسح سيلها بعض المنازل المجاورة .

كنا نسكن أقذر أحياء القاهرة ، في غرفة تحت الأرض ومع ذلك فقد كانت أمي لا تزال تحتفظ بجمالها ، مما يميزها عن بقية الجارات الدميمات . لم تكن أمي كبيرة العمر ، كانت لا تزيد عن الثلاثين ، وكانت بشرتها ناعمة ، ناعمة جداً ، سمراء في عذوبة ، ومع ذلك فقد كان "الألم جزءاً لا يتجزأ من وجهها . كان يشيع في الجبهة ، في انوجنتين ، من الفم ، وكان واضحا جدا في نظرات العينين ، كأنما ثمة ماض هناك .

وبدأت أمي ترتعش فالنوبة عاودتها ، فوضعت عليها كل ما لدينا من أغطية ، لكنها كانت لا تزال ترتعش ، ولمست يدها ، لم تكن حرارتها مرتفعة كما توقعت ، بل عادية أو ربما منخفضة قليلا ، ولكن نبضها كان مضطربا

> ثم يقول لامي وهو يداعب وجنتي : إنه يشبهك تمام الشبه . فاجابت في اقتضاب وهي تتكلف الابتسام حقا ؟

وفجأة فتحت الريح النافذة الزجاجية الملصقة بالسقف ودخل غبار كثيف فقمت أعيد إغلاقها وانا خائف وبدأت تساورني الوساوس ، أن أمي قد تموت فرغم انحلال صحتها في السنوات الاخيرة الا أنني لم أرها ترقد مريضة أبدا ، كانت دائما تتحامل وتجاهد ... والا فاننا سنموت جوعا . هذا الى انها كانت دائما تخطب ، ماذا كانت تقول ؟ ولماذا تفضل الحياة ؟ هذا ما لم أكن أعرفه انذاك ، فكرت لحظة ان أمي قد تموت ، ولم أكن أدري ماذا يجب أن أفعل آنئذ . هل أنادي جارتنا أم نادر أو اظل ساكتا حتى الصباح ؟ كنت شبه وحيد ، حقا كانت لي أخت ، لكنني لا أعرف مقرها ، ولم تخبرني أمي كثيراً عنها ، واما والدي فلست أدرى ان كان قد مات أو لا يزال حيا . كان يجيء المنزل أحيانا وهو مخمور . لم يكن

شكله يبعث على الارتياح ولم اكن أطمئن اليه. كانت ملابسه دائما ممزقة ، وغالبا ما يكون هناك جرح أو آثار جرح في رأسه أو في يده أو في أي مكان من جسمه نصف العارى ولم اكن اعرف ماذا يعمل ، فأن أمي هي التي كانت تجلب لنا القوت . لكنها كانت تحبه كما كانت تخافه . وكان اذا ما غاب عن المنزل كثيراً — رغم تعوده ذلك — فانها تظل قلقه .

وطلبت مني أن أنزع عنها كل الاغطية فهي تكاد تختنق وبينا أنا أنزع عنها الاغطية واحدا واحدا حتى لايجف عرقها المتصبب مرة واحدة فتصاب ببرد ، رأيتها تمسك ذراعي بقوة ، كان وجهها الممتقع جميلا ، وددت أن أقبله فلم أكن أحتمل أن ينطفئ هذا الحنان المشع من وجهها ، لكن الألم ، الألم المرتسم فيه أفزعني وكأنما همت أن تقوه بشيء ثم عدلت . وأرخت قبضتها ، ثم طلبت مني كوب ماء فذهبت الى الابريق أملأ لها الكوب ، وحين عدت عاونتها على الجلوس ثم الشرب. فلما شربت كانت اهدأ قليلا وسألتني: متى يكون سبعة عشر من مايو يا فوفو ؟ [وهو الاسم الذي عودتني أمي أن تدللني به] أجبتها : غداً ياأماه ، ماذا هناك ؟ وكانت هذه هي المرة الأولى التي جرؤت فيها أن أسألها عما بها . ولم تحاول أن تخفي ، ولم تحاول أن تجيب . انتظرت لحظة ، كانت العاصفة في الخارج لا تزال تزأر ، والبرق يرى بوضوح من خلال النافذة الزجاجية ، وكان دوى الرعد واضحا . نعم كان كل شيء واضحا ، واضحا جدا : البرق ، الرعد ، نبضات أمي ، خوفي... اما كان كل شيء واضحا ؟

ولمعت عيناها ، ونظرت الي في حنان . ثم امسكتني وجعلت تقبلني وهي تقول : ستخرج غداً معي يا فوفو ، أليس كذلك ؟ ورفعت رأسي من بين شعرها الناعم الذي غمرني وقد انبعثت في أنفي منه رائحة غريبه كرائحة الوحل وانا أجيبها في فرح : مؤكد ، مؤكد ياأماه . وكانت هذه هي أول مرة تدعوني فيها أمي الى الخروج معها . ولكن الى أين ؟

وفي الصباح كانت أمي أحسن قليلا ، والسماء قد صفت ولو أنني كنت أعجب كيف تستطيع أن تخرج في مثل هذا الجو وهي مريضة . وقد ازداد تشاؤمي حين وجدت الغيوم تتجمع عند الظهر منذرة بعواصف أشد من عواصف الأمس وعندما حان وقت المساء كان الرعد والبرق في كل مكان ، ومع ذلك فان أمي كانت مصممة على الخروج ، وارتدت ثوبا لم أرها ترتديه من قبل ، ثم ألبستني ملابس كان من الواضح أن طفلا آخر استعملها من قبل ، لكنه كان طفلا غنيا . وكانت أمي جميلة ، جميلة جدا هذا المساء ، وحاولت جهدها أن تزيل آثار التعب . لكنه برغم كل شيء كان مرتسما عليها . وتعلقت بها فحملتني على ذراعيها حتى صدرها المرتفع قليلا ، وهناك غمرتها بالقبلات . رأيت دمعتين تنحدران من عينيها في سكون ، ثم تضعني في بطء على الأرض كي تجففها .

ورغم الزئير المتعالي ، والغبار المتكاثف خرجنا ... وظلت أمي تقودني خلال ازقة قذرة ومنحنيات رطبه حتى وصلنا الى باب خشبي كبير في منزل مكون من طابق واحد وطرقت أمي الباب ففتح لها كهل وتسلم سلم عليها في حرارة فلا شك أنها يعرفان بعضهما . ثم ربت على كتفي وأمسك بذقني يرفع بها وجهي اليه ، ثم يقول لامي وهو يداعب وجنتي : انه يشبهك تام الشبه . فأجابت في اقتضاب وهي تتكلف — الابتسام : حقا ؟ —

ودخلنا ردهة كبيرة أعدت لاجتماع كبير ، ومع ذلك فقد كان هناك عدد ضئيل من الناس متفرق هنا وهناك مما جعلني أحس بوحشة وانقباض رغم أن اكثرهم كان يعرف أمي . وجلست الى جوارها أحاول أن اقرأ في عينيها الحوادث المقبلة . وبدأ الناس يتوافدون واحداً بعد الآخر كان اكثرهم من العمال ، وجوه يعلوها التعب ، لكنها تحب الحياة ، وأمي تنظر الى كل داخل كأنما تتوقع مجيء انسان وفجأة رأيت وجه أمي يمتقع ويداها ترتعشان ، ثم تهتف فيما يشبه الهمس المرتجف : ها هو قد أقبل . واتجهت نحوه بكل الانظار ، وتفرست في الرجل فوجدت كمه الايسر فارغا ! كان هو ايضا في نحو الثلاثين ، ودكني استقباله على أنه سيحاضرنا . وحين بدا يتحدث كان العدد لا يزال قليلا ، فلعل العاصفة عاقت الكثيرين ، على انه حين انتهى

الاجتماع كان الزحام شديدا .

وقد انطبع صوت الرجل فى ذهنى انطباعا لم تمحه الايام كان جرسه عميقا قويا ، ولحديثه تأثير على النفوس ، لكن شيئا من الألم ، تماما كالالم المرتسم على وجه أمي ، كان يتخلل صوته . كانت عيناه ترتفعان أحيانا فتلتقيان بعيني أمي ، لكنه سرعان ما يخفضهما ما ضيا فى حديثه ... كان يتحدث بايمان وحماسة الى جمهور العمال عن مواضيع لم أكن قد سمعت كثيراً بها ولا فهمتها ليلتئذ كثيرا . لكن يبدو أن أمي كانت تعرف الشيء الكثير عن هذه الامور .

وكانت تنتظر في لهفه نهاية الاجتماع حتى تقف وتنتظره وكنت أرقبها في وضوح ، وبدأ يساورني احساس لم أعرفه من قبل واعتراني لحظة واحدة : فقد بدأت أخاف هذا الرجل وأكره أن تهتم به أمي هذا الاهتمام ... كان ثمة ابتسامة وادعة ترتسم على شفتيه ، لكن ثمة تناقضا مرتسما على جبهته العريضة المكللة بالعرق ، وكأنما صدى صوته العميق يشير الى مأساة مختبئة فى ماضيه .

غير أن ما أثار بعض دهشتي ، هو انه ما بدأ عليه أنه يعرفها فبقدر ما كان اهتمام أمي بقدر ما كان عدم اكتراثه كان من الواضح أنها تعرفه أكثر مما يعرفه أي إنسان آخر في هذا المكان ، وكان من الواضح انه لا يعرفها الا كما يعرف اي انسان آخر في هذا المكان . وما ان حيـا أمي بنفس الطريقة ونفس الابتسامة التي حيا بها الاخرين ، حتى لمحت وجهها يشحب تماما .

واندفعت أمي وسط الزحام والناس يفسحون لها طريقا ، حتى اذا وصلنا الى الباب سحبتني في عنف الى الخارج ، ثم جعلنا نسير في خطوات سريعة يختلف وقعها عن تلك الخطوات التي اقبلنا بها ، حتى اضطررت أن أصرخ قائلا : أمي أنك تسرعين ولست أستطيع أن الاحقك . وخففت أمي من سرعتها قليلا ، لكنها سرعان ما نسيت وأسرعت من جديد وكانت لا تزال قابضة على يدى مما اضطرني أن أجهد نفسي حتى لا تفلت يدى من يدها .. وكنا صامتين .

وقبل أن نصل الى غرفتنا كان المطر قد بدأ يهطل ، حتى اذا قاربنا الغرفة كان قد ملأ الأزقة المؤدية اليها بالوحل

و كان المطر قد بللنا ، وعلى ضوء المصابيح البترولية التي ينبعث شعاعها من نوافذ مغلقة محطمة رأيت الماء يبرق على ثياب أمي ، وشعرها قد تبدل ، وحاولت أن تحملني خوفا من انزلاقي فى الطين ، فلما رفعتني وأصبح وجهي فى وجهها لمحت بريقا من الدموع يتألق على وجنتيها ... وكانت أضعف من أن تحملني ، فأنزلتني .

وحاولت أن أتحدث الى أمي في هذا المساء ، لكنها لم تعطني فرصة . ووضعت العشاء امامي ، ولم تجلس كعادتها الى جواري ، فجعلت انتظرها ، فما كان يبدو على الطعام لقلته هل هو لواحد او لاثنين . لكنني شاهدتها تنصرف الى حقيبة صغيرة فى ركن الغرفة قد علاها تراب كثير ، ثم تنفضها بعناية ، ومع ذلك فقد امتلأت الغرفة بالتراب بعض الوقت وفتحتها وهي ترانى ارقبها فأفهمتني انها لن تشترك معي فى الطعام . وترددت أن آكل وحدي ، لكنني كنت جوعانا فازدردت بضعة لقيمات ثم تركت الباقي على المائدة وانا ارقب أمي وهى تقرأ ما يشبه الخطابات القديمة . وكان الجو ساكنا حتى ان صوت المطر الهاطل فى تلاحق وغزارة كان يسمع بوضوح كأنما يسقط فى فراغ ... وعلى حين فجأة فتحت العاصفة هـذه النافذة الملعونة الملصقة بالسقف ، فأطفأت المصباح ، وعبثا حاولنا ان نبحث عن عود ثقاب . فاضطرت أمي ان تتوقف عن القراءة ، وأرادتني ان أنام ، ونامت هي الى جواري .

وكنت تعبا ، وسمعت كأنما أمي تبكى وانا ما بين اليقظة والنوم ، فقمت فى حركة نصف واعية أمد ذراعى ، نحوها واقبل دموعها واستعذب مذاقها الملح ، فأزاحتني عنها في رقه وهى تقول : نم يا حبيبي . وربما لم يراودني النعاس الا ساعة وبعض الساعه ، وحين صحوت وجدتها جالسة وقد فتحت النافذة ترقب منها السماء وكانت العاصفة قد هدأت والمطر انقطع ولو ان سحبا كثيفة كانت تحجب نور القمر فملأت الجو بضوء خافت رهيب . واحست أمي بحركتي فسألتني ألا تزال مستيقظا يا فوفو ؟ اجبتها : إنني لا استطيع ان أنام . قالت : لماذا أنت ايضا ؟ وصاحت فجأة : انت كبير يا فريد ، وانت الانسان الذي استطيع ان اتحدث اليه .

وبقدر ما كان صمتها بقدر ما اندفعت في حديثها ... لم أكن أرى قسمات وجهها بل كنت أسمع الى نبرات صوتها مغمورا في هذه الرائحة الرطبة المنبعثة من بقايا العاصفة والمطر ، وكنت أرى شعرها يتحرك بعض الاحايين مع حركة وجهها، وصدرها الجانبيه في ذلك الضوء المنبعث من وراء الغيوم .

وفي نهاية الحديث صرخت بصوتها المتهدج : لكنني كنت واثقة انه لا يمكن ان يكون قد نسيني أنا ، ومع ذلك فيبدو انه قد فعل ، لأني انا كنت كل ماضيه . وبدأ حياته من جديد . فعاش كي أتحطم انا . ان أمك ستموت سريعا يافريد وانزعجت لهذه الصرخات ، واحسست بانقباض وادركت انني سأبكي ، وحاولت جاهداً ان أسيطر على نفسي لكنني سرعان ما اندفعت في أحضانها أبكي . أحسست أنني مقود لأن ابكي ، وان ثمة دافعا لا طاقة لي به يدفعني على أن أبكي وان يرتفع صوتي صائحا : كلا يا أمي ، كلا يا أمي ، بل ستعيشين . وجعلت احتضنها في خوف وانا أحس انها ستفلت مني ، ان ملكا او شيطانا سيخطفها بعيداً عني واذا بها تندفع معي في بكاء مرير ، وقد تشبثت لي هي الاخرى مما ضاعف خوفي . وكنت أستعيد حديثها الذي بدأ خافتا في اول الامر ثم اختتمته بتلك الكلمات . لم افهم كل شيء لكنني استوعبت ما كان عقلي يستطيع ويريد ان يستوعبه .

وابتدأت تخف هذه النوبه من البكاء ، لكن دموعي ظلت تنحدر في سكون مدة طويلة بعد هذا . ونظرت الى أمي من بين الدموع التي اغرورقت بها عيناي ، فلمحت جانبا واحدا منها في هذا الضوء الباهت ، اما الجانب الآخر فقد كان مظلما تماما .

لقد عاشت أمي اشهراً قلائل بعد ذلك ، لكنها كفت تماما عن جهادها ، وما عادت تخرج الا للحاجة القصوى وكانت زائراتها قليلات . كنت اسألها : لماذا لا تخرجين يا أمي الى كفاحك وحياتك العظيمة ؟ كانت تجيبني : كنت اعمل كي يسمع ويرى ويعرف ان المرأة التي احبها ذات يوم كانت جديرة بحبه . اما الان ... ! انني احس ان اصواتي لاصدى لها ، المرآة التي كانت تنعكس فيها نفسي قد تحطمت ، وكأنما انا في كابوس اصرخ ولا صوت يخرج . ما قيمة هؤلاء المصفقين لي اذا كان هولا يصفق لي كانسان في حياته ؟

وكنت أقول : لقد فقدت ذاكرته منذ عشرة أعوام وكنت تعملين طيلة هذه الأيام ! فكانت تجيب : لكنني لم أعلم بهذا الا منذ زمن قريب ، وهنا مجال السخرية ومجال المأساة .

وفي أخريات ايامها شل نصف جسدها ، فكان الاصدقاء يفدون على غرفتنا يعطوننا بعض ما لديهم ، او ربما كانوا يردون جميلا اسدته لهم أمي ذات مرة ، فقد كانت كثيرة الحركة عطوفة محبة . اما والدي فقد عاد يوم ماتت ، اقبل ليلتها مخموراً في الهزيع الثالث ، حين كان وجه أمي أبيض طاهراً نقيا . كان التعب والفقر ، وهذا القلق الذي استولى عليها ، قد أفقدها كل قدرة على ان تحيا ، ليتها كانت قد نسيت كل وجودها ، اذن لعاشت من جديد . كانت وطأة الماضي ثقيلة عليها حتى أخمدت انفاسها . وكانت قد أصبحت تحس دائما انها تعيش بلا نصف . وعندما رأى والدي هذا الوجه الجميل هادئا في عمق استيقظ من سكرته ثم بدأ يجهش بالبكاء ، وانا انظر اليه في بله كأنما من الغريب ان يبكي زوج زوجه . ثم سرعان ما خرج يقول : إنني في حاجة الى كأس حتى أطفىء هذه الاحزان ، فموت أمك صدمة عنيفة لي . وخرج كي ينسى همومه ، اما انا فانحنيت عليها اقبلها ودموعي تنزل مني بغزارة وصمت . وفي الصباح ناديت جارتنا أم نادر كي تضعها في الاكفان واستطعت ان أخبر أختي .

وشيعت أمي حتى المقبره ، وتركت أختي تعود وحدها الى الغرفة ، اما انا فلم يعد لي وجود مرة أخرى في ذلك المكان .

القاهرة — يوسف الشاروني

فوز حزب الوفد المصرى

على اثر فوز الوفد بالانتخابات وتسلمه الحكم برئاسة خليفة سعد [النحاس باشا واذاعة النبأ ارتجل شيخ المؤرخين البازي هذا التاريخ : ٢٢ ربيع الاول ١٣٦٩ هـ

مذ نجح الوفد بانتخابه شخصاً له سعد [قد عاً اصطفى

[مصر] اذاعت بتاريخي [ندا وبشرتنا بفوز المصطفى]